

سه روائع عصر الأحياء

قصص الأيام العشرة

بقلم جوفاني بوكاشيو

للأستاذ محمد عبد الله عنان

من آثار عصر الأحياء الخالدة قصص بوكاشيو الشهيرة المسماة «ديكامروني». وقد مضى على ظهور هذا الأثر الرائع زهاء ستة قرون؛ بيد أنه ما زال حتى عصرنا يحتفظ بروعته وسمو خياله وفنه، وما زال يقبوا مكانه بين الآثار العالمية الخالدة وقد أوحى إلى بوكاشيو كتابة أثره حوادث مروعة شهدتها وهزت نفسه إلى الأعمق، فأذكت خياله، وانتزعت من قلبه تلك القصص الساحرة التي تصور لنا كثيراً من روح العصر وخلالها أصدق تمثيل وأتمه

كتبها بوكاشيو وأشياح الفناء تمتد من حوله، والموت الذريع يقطف أزاهير المجتمع من كل الطبقات والأعمار؛ والتمس بكتابتها عزاء لنفسه وعزاء لمجتمعه عما نزل به من أهوال الفناء، وتكون باعاً إلى النسيان والروح. وكان بوكاشيو يومئذ في نحو الخامسة والثلاثين من عمره، في ذروة الفتوة والنضج، فجاءت هذه القصص أروع آثاره، وعنوان مجده، وأخذت مكانها بين أعظم آثار عصر الأحياء

ولد جوفاني بوكاشيو في سنة ١٣١٣ م في باريس من أب إيطالي وأم فرنسية، ونشأ في فلورنس موطن أسرته، وتلقى فيها تربيته، وشغف منذ حداثة بالشعر والأدب، وتأثر أيماً تأثير بشعر فوجيل؛ وكان أول آثاره قصة غرامية عنوانها «فياميتا» وهي فتاة حسنة يظن أنها تمثل فتاة حقيقية هام بها بوكاشيو، وأظهرها في شخص فياميتا، والمظنون أيضاً أنه يصف حبيبته هذه في شخص بطله قصته الأخرى «فلسكوبو». وبحول بوكاشيو في المدن الإيطالية، وعاش حيناً في نابلي، في عهد ملكها روبرتو وملكها الفتية الحسناء جوفانا (جنه)، واتصل بيلاطها الساطع النحل معاً، وكتب فيها بعض قصائده وقصصه؛ ومنذ سنة ١٣٤٢ تراه يستقر مع أسرته في فلورنس،

ويحاول أن يفوز بمنصب في الحكومة أو مركز أدبي يعينر منه؛ وقد لقت كفاياته الحكومة غير بعيد، فأوفدته سفيراً إلى حكومة «رومانيا» في سنة ١٣٤٦، ولكنه اضطر بعد ذلك بنحو عام إلى العودة إلى فلورنس على أثر موت أبيه ليعني بشؤون أسرته، واشترى بمعظم ميراثه كتباً لاتينية ويونانية، واتقطع للكتابة والتأليف

ولم يمض قليل على ذلك حتى نكبت إيطاليا وفلورنس ونكبت العالم بأسره بتلك الكارثة العظمى التي تعرف في الرواية الغربية بالوباء الأكبر، وفي الرواية الإسلامية باسم مماثل هو «الفناء الكبير»، ذلك أن الفناء الكبير قد اجتاح أمم المشرق والمغرب معاً، وحمل منها إلى القبر عشرات الملايين، وعصف بجميع المجتمعات الزاهرة أيما عصف؛ وبسط على العالم المتمدن كله ربحاً من الرهبة والروع؛ وقد شهد بوكاشيو أحداث الوباء في فلورنس منذ بدئها، وترك لنا عنها وصفاً مروعاً مؤثراً؛ واليك ما يقوله في أصل الوباء وأعراضه:

«إنه في سنة ١٣٤٨ ميلادية حل الوباء القاتك بمدينة فلورنس الزاهرة، أجل المدن الإيطالية، بُد أن لبث قبل ذلك بأعوام يعصف بالشرق، إما لتفاعل الكواكب والاجرام، وإما لنضب الله الحق لما يرتكبه عباده من الخطايا، ولأنه أرسل إليهم صواعق عقابه، فمصعب بكبيل من البشر لاحصر لها؛ وانتقل الوباء مسرعاً من مكان إلى مكان حتى حل بالغرب يحمل الفزع والروع... وكانت أعراضه سواء بالنسبة للرجال أو النساء، فيظهر أولاً في شكل أورام تصيب الأبط أو أسفل البطن ثم تنتشر في جميع أجزاء الجسم، ثم تتحول إلى بقع سوداء أو ممتعة تملأ الذراعين والفخذين، ثم سائر أعضاء الجسم؛ وكان المصاب يموت عادة في اليوم الثالث دون حى ودون مضاعفات أخرى»

واجتاح هذا «الفناء الكبير» أمم الشرق والغرب معاً، فمات في الأمم الإسلامية أيما عيث؛ وعصف بمجتمعاتها الفنية والآلهة، وسرى إلى جميع الأمم الأوربية، وبسط عليها رهبة الدمار والموت، وحمل من سكانها نحو الثلث في أشهر قلائل؛ وكان فتكه أشد ظهوراً، وأعمق أثرًا في مجتمعات إيطاليا، وبخاصة في فلورنس التي كانت تتمتع يومئذ بمحضارة زاهرة؛ وهنالك أفنى

والأخوة والأزواج ، وأهواؤهم وأوامرهم ، على أن يقضين معظم أوقابهن معتقلات في غرفهن الضيقة ، فيجلسن عاطلات ويسترضن في أذهانهن أفكاراً مختلفة لا يمكن أن تكون مرحلة أو سارة »

وكتب بوكاشيو قصصه الساحر في ذلك الأفق الذي نسميه أنشباح الفناء ، والناس ينظرون الى الحياة كأنها لمب طائر ، ويودعون بعضهم بعضاً ، واختار لكتابه هيكلاً طريفاً خلاصته ، أنه في ذات يوم ثلاثاء ، وعصف الوباء في أشده ، اجتمع في كنيسة القديسة « ماريا نوفيلا » في فلورنس ، سبع فتيات هن بامبينا ، وفياميتا ، وفيلومينا ، وأميلييا ، ولوريتا ، ونيفيلي ، وأليزا ؛ وكانت أكبرهن بامبينا في الثامنة والعشرين ، وأصغرهن أليزا في الثامنة عشرة ، واقترحت بامبينا أن يفادون المدينة فراراً من الوباء والموت أسوة بأصدقائهن ؛ فاعترضت فيلومينا ، وقالت إن النساء يتقصن التفكير السليم ، ويغلب عليهن القلب والشك والخور ، ولذا وجب عليهن أن يخترن مرشداً ؛ فأيدت قولها أليزا وقالت إن الرجال هم أصحاب الرشاد والنصح ، واقترحت أن يستدعين بعض رجال يقومون بالارشاد

وفي تلك اللحظة يدخل الكنيسة ثلاثة فتيان ، أصغرهم يناهز الخامسة والعشرين ، وهم بانفيلو ، وفيلوستراتو ، ودبونيو ، وكان من غرائب الاتفاق أن كلا منهم كان يمشق إحدى الفتيات السبع ، وأنهم جميعاً أقارب للأربع الباقيات ، فأشارت اليهن بامبينا ، وقالت إن العناية تحقق أمنيتهن بحضور أولئك الفتيات الكرماء الأتماء ، فاعترضت نيفيلي ، وكانت حبيبة أحدهم ، خشية الاقتضاح ، وناقشتها فيلومينا مؤيدة بامبينا ؛ فلب رأيتها واستدعى الفتيان الثلاثة ، واتفق الجميع على ارتياد قصر خاص ، ومعهم الخدم وكل ما يحتاجون اليه ، وهناك يقيمون حتى ينصرف الوباء ؛ وفي صباح اليوم التالي ذهب الجميع الى هذا المحل المختار ، وهناك اتخذوا مجلسهم تحت الأشجار الظليلة على أرائك وثيرة ، وأمامهم الاطعمة والأشربة الشهية ، وجعلوا يترددون بين الطعام والسباحة

في ركة صغيرة بالقصر ؛ وهناك أيضاً بدأوا سرد القصص وكانت صاحبة الفكرة بامبينا ، فقد اقترحت أن ينتخب أحدهم حاكماً للمجلس كل يوم ، وأن يضطلع في هذا اليوم بتدبير شؤون الجماعة وتسليتهم ؛ وتولت هي منصب الملكة

جيوشكبرمتها ، وأهلك عدداً كبيراً من الأمراء والعظماء والقادة ، ويقول لنا بوكاشيو إنه استتال هنالك من مارس إلى يونه سنة ١٣٤٨ ، وحمل من فلورنس وحدها مائة ألف إنسان »

ويصف لنا بوكاشيو أهوال الوباء ومناظره المروعة وصفاً ضافياً مؤثراً ، فيقول : « كان الناس يجتنبون بعضهم بعضاً ، وتلما يتراور الأقارب أو لا يتزاورون أبداً ؛ وألقت الكارثة الرعب في قلوب الناس جميعاً ، رجالاً ونساء ، حتى أن الأخ كان يبتذ أخاه بئذ النواة ، والأخت أخاها ، والمرأة زوجها ؛ بل أروع وأبعد عن التصديق أن الآباء والأمهات أضربوا عن رؤية الأبناء أو تمهدم ، كأنما ليسوا من ذويهم »

« بل لقد هجر الناس الجيران والأقارب والخدم حتى اضطروا الى ارتكاب عادات لم يسمع بها ؛ من ذلك أن المرأة مهما كانت من الجمال أو النبيل ، إذا أصابها مرض واضطرت الى استخدام رجل ، شيخاً كان أو شاباً ، فانها تكشف له دون خجل كل أجزاء جسمها إذا اضطرتها ظروف المرض ، وربما كان ذلك هو السبب في انحلال الحشمة والحياة عند أولئك اللاتي نجون »

ثم يقول : « وكان يبنى باديء ذي بدء ، فيلق بهم دون احتفال في أول مقبرة ؛ فلما اشتد الوباء ، كان الموتي يحملون جماعات ، ويلقون في الطرق ؛ وقد تموت أسر برمتها فلا يبقى منها إنسان ؛ وأزواج وآباء وأبناء معا ، ويلقى الجميع بلا تمييز في حفر كبيرة »

تلك هي الأحداث والمناظر المروعة التي أذكت خيال بوكاشيو ، وأوحت اليه بكتابة أعظم آثاره ، وهيأت له في نفس الوقت ذلك الأفق المنوي الحر الذي جرى في ظله قلمه ، ويلخص لنا بوكاشيو غايته من تأليف ذلك الأثر في قوله : « ولقد رأيت ترويحاً للسيدات العاشقات وتمزيتهن — وتكني في ذلك لنيرهن الأبرة والمنزل — أن أقص مائة خرافة أو رواية أو تاريخ أو ما شئت أن تسميها »

ثم يقول : « ومن ذا الذي ينكر أن الأفضل أن تقدم ذلك الغراء للسيدات العاشقات لا للرجال العاشقين ؟ ذلك أن السيدات العاشقات يفضن خجلاً وخوفاً ؛ ويرغمن على إخفاء جري الحب في صدورهن ، وتحملهن رفات الآباء والأمهات ،